من الجنس إلى حيرة النصّ

الدكتور أمين الزاوي

هل يموت الجنس الأدبي؟ كيف تتم ولادة الجنس؟ هل هناك ولادة نهائية • كيف وأين ومتى ننتظر موت جنس أدبي• وهل وجود الجنس الأدبي وجود إجرائي أم أنه وهمي •

تبدو هذه المسألة أنتروبولوجية في وجهها الأول وفلسفية في الثاني وتاريخية ـ أدبية في وجهها الثالث.

أعتقد أن أول أوليات الأسلحة التي يتمنطق بها الباحث في ظاهرة الجنس الأدبي، هو امتلاك قراءة التاريخ الأدبي ونصوصه منطلقاً من زاوية أركيولوجيا المعرفة، إننا نعتقد أن «حفريات المعرفة» هي وحدها الكفيلة بطرح السؤال في بعده الأنتروبولوجي واللساني والأسلوبي والتاريخي أمام النص الأدبي بأمل توضيبه في صف جنس أدبي ما، إننا نعتقد أنه من الصعب تصنيف النصوص على أساس شكلاني/ ظاهري، وهذا لا يعني مطلقاً التقليل من أهمية الشكل والظاهر والبصرية في التعامل مع النصوص، إن النقد الاجرائي مصاب بعاهة التصنيف التي يفرزها العقل المبسط الظواهر، العقل الذي يريد اختزال الظاهرة وتقليص المسافة على حساب أعماق السؤال.

إن التفكير في عملية اصطفاف النصوص تبعاً لتعريفيتها، لا يكون إلا انطلاقاً من تحليل وتفكيك الوجود الحيوي للنصوص في علاقتها بتاريخها وتاريخ المعارف الفنية بشكل عام. ونعتقد أن العقل الذي يبحث في رسم «هوية» النصوص عليه أن يتجرّد من أخلاقيات الممارسات النقدية القديمة دون أن يلغيها، إن حضورها لا ينبغي أن يكون إلاّ لرفضها، وإلغاء القياس عليها، منطلقاً من ذلك. فالفكر التنظيري المصاب بسؤال التنظير، وهو سؤال جمعي، عليه أن يتنازل عن نزعة «المقايسة» التي تغلب الظاهري على الداخلي، الإيماني على الانتقادي.

إن «المقايسة» التي تعرفها التفكيرات النظرية في النقد عندنا في حقل المعرفة الأدبية العربية، «مقايسة» لا يمكنها إلاّ أن تنتج نقداً يكرِّر الصوت أو الأصوات التي نتجت من جراء علاقة معقّدة وخاصة ما بين الشَّرْطِيّة الاجتماعية والشَّرْطِيّة الإبداعية، إن «المقايسة» ظاهرة اغتراب العقل عن محيطه، اغترابٌ أساسه الانتماء إلى متن أو متون لا ترتبط في شمول بنياتها ببنيات «ميكانزمات» إنتاج الإبداع.

إن القول بأن «المقايسة» موقف اغترابي، لا يعني مطلقاً الابقاء على فكر العزلة والانعزال، والنقد الذي لا يتسلّح بالمناهج الحداثية المدجّجة بالوسائل الجديدة لا يمكنه أن يحقّق قطيعة ابستمولوجية مع المتن العتيق، كما أنه لا يمكنه انطلاقاً من هذه الوضعيّة أن يحقّق تموقعاً في خندق «حفريات المعرفة»، إلا أن مأساة نظريات النقد العربي الحديثة والحداثية، هو انغلاقها في ممرّات النقل، حيث يمارس الناقد عملية استيراد المفهومات الفلسفية بحجة العصرنة والتحديث، إلاّ أننا حينما ندقّق النظر في وضعية هذا الخطاب في نظامه وسياقاته فإننا نجده لا يختلف كثيراً عن حالة استيراد السلع الباهرة للاستهلاك، أعتقد أن وضعية «الناقل» التي يمارسها المثقف العربي والتي حوّلت خطاباته إلى خطابات نخبوية، جعلت كثيراً من المبدعات في النقد والتفكير النظري النقدي خالية ومتحلّلة من الحس الجدلي بالنصوص في طموحها القادم من سياقاتها ومقاماتها التي تحدِّد هويتها.

إن حالة من رهن التفكير العربي في الأدب ونظريات النقد، تبدو مهيمنة على نظام التفكير في المعرفة الأدبية، وانطلاقاً من ذلك، فإننا نعتقد أننا لم نخرج بعد من ممرات النقل في المساءلات النظرية والتنظيرية، وأننا في ذلك لم نتمكّن بعد من تجاوز حالة النقل لننتقل إلى حالة التمثّل التي من خلالها يبدأ التفكير النقدي المتخلّص من التبعية وبؤس المعرفة والمعرفة البائسة والعرف البئيس. إننا نعتقد من خلال معاينة اجرائية لانتاج المعرفة النظرية النقدية أننا لم نتمكّن بعد من خلق حوار مع الذات في إبداعيتها، وأننا حين

نحاول أن نحاور الذات إنما نترجم حوار (الآخر) عنها ومعها. إن التحكّم في الجهاز المفاهيمي النقدي الذي في ضوئه نستطيع الكشف عن خبايا ميكانزمات العملية الابداعية مسألة قبلية، إلاّ أن التفكك كحالة بنيوية يعيشها النص النقدي العربي توحي بأننا نواجه أزمة تتمثّل في غياب التمثل والاجرائية من خلال الجهاز المفاهيمي المعتمد، لذا يبدو النقد وهو يطمح إلى تأسيس خطاب عن نفسه وعن نصوص إبداعية، إنما يعيش حالة من «الأتنية ـ المفاهيمية» (أي حالة اندهاش في المفاهيم التي تنتجها آلية المعرفة الأدبية والنقدية الغربية.)

انطلاقاً من ذلك فأزمة السؤال النقدي تكمن أولاً في غياب وعي النقد عن متنه، وبالتالي وهذا ثانياً غياب وعي المتن المراد دراسته، لأن جهازاً مفاهيمياً لا يعي نظامه في علاقته مع الفضاء بشموله المعرفي، لا يمكنه أن يقدِّم تجربة في حفريات المعرفة الأدبية.

إن طرح مسألة «الأجناس الأدبية» للنقاش، يبدو سؤالاً ملحاً على المفكّر العربي المشتغل في حقول الأدبيات، خلال السنتين الأخيرتين، وإنني هنا أذكر بذلك الملتقى الذي احتضنته جامعة لسانيّة وهران في نهاية السنة الماضية، والذي دار حول محور الأجناس الأدبية في المغرب العربي بين التأسيس والتأصيل، وإذا كانت أغلب المداخلات ذات طبيعة نقدية اجرائية تاريخية أو تحليلية مقصدها تناول جنس من الأجناس الأدبية المهيمنة في حقل المعرفة الأدبية (الشعر والرواية والقصة القصيرة والمسرح) إلاّ أن المداخلات افتقرت إلى الطرح النظري[1].

١ ـ إن مفهوم «الجنس» بما يحمله من دلالات وإحالات على الفلسفيّ، مفهوم ينتمي في جوهره إلى «الأنتروبولوجي» أكثر مما ينتمي إلى علم الأدب ونظريات النقد. إنه مفهوم إشكالي يطرح أسئلة تستعير لسانها من الأنتروبولوجي والبيولوجي، لأنه مفهوم يوحي بإضفاء صبغة الكائنات الحيَّة على النصوص.

إننا حين نستعير مفهوم الجنس من حقول أخرى، فإننا نستطيع وبذات السياق أن نسحب معه سؤال «الموت» و«الحياة»، لنواجه به «الأدبي» في ماهيته وتاريخيته وكينونته.

إن سؤالنا عن ميلاد جنس أدبي ما، شبيه بسؤالنا عن الغسق الذي فيه تشكّل العالم، فمن الناحية العلنية كل الأجناس الأدبية موجودة في شكل من أشكالها اللامحدودة من خلال الممارسة الأدبية. ولا يوجد شكل نهائي لأيّ جنس أدبي باعتبار أن الأدب ظلّ للحركة، وشكله ظل لاجتماعية الحركة.

من هذا المنطلق لا يمكن القول بأن جنس الرواية قد ولد، لأن ميلاد الفنون مرتبط بالديمومة وملتصق بالموت، ونعتقد أن ولادته قد تتعثر بعد تطور تجارب الكتابة بدايات أولى، بداية تؤسِّس لميلاد ما.

إن أي جنس أدبي هو لقاء «تناصّات» متعدِّدة لتراثات أجناس وفنون وعلوم أخرى، تلتقي لتشكّل خطاباً جديداً يتراكم كي يزعم لنفسه تاريخية التأسيس.

ينطلق سؤال التأسيس المستمر والاستمراري والمضاد لليقين، من الذاكرة الجماعية والفردية المبنية على المفكّر فيه والمفكّر عنه واللامفكّر فيه.

ـ الأعراف الأدبية ووعي الأجناس:

١ ـ أعتقد أن دراسة تطور الأجناس الأدبية والوقوف عند ولادتها ـ موتها ـ دستورها هو المسلك القويم لوضع نظرية لتاريخ داخلي لتاريخ الأدب وتاريخ الأدبية.

إن البحث في سؤال الجنس الأدبي هو في أساسه بحث في سؤال الأدبيات، في نظامها وتعريفيتها وطموحها وتجريبيتها.

٢ ـ هل اللغة من حيث هي «مؤامرة» على الواقع ومنه، بما تملكه من قوة الإيهام، ومن حيث أنها جزء من هذا الواقع المجسّد والمتصوّر، ومن حيث هي مسبوكات قابلة لأن تذوب وتسبك من جديد، ومن حيث أنها تملك ذاكرة تحوي ترسبات، هل اللغة بهذا المنظور كفيلة بأن تسمح بتشييد «كائن» أدبي حيّ ومتحرِّك؟

لا وجود للغة ثابتة، فارتباط اللغة واوتهانها للزمن الإنساني يؤكّد أن لا لغة كاملة، كل لغة متوالدة، وكل الخطابات التي تنتجها اللغات في طموحها الأدبي خطابات متغيّرة. فكما اللغة ـ أساس الأدبية ـ مكسورة ومتكسّرة باستمرار ـ وربما هذا هو سحرها ـ وأن هذا التكسير لا يتحقّق إلا من خلال وجوه وممارسات الإبداع ـ بالجمع ـ : المكتوب والشفوي والحركي ـ الجسدي، منطلقاً من ذلك فإن الكائنات الأدبية لا تعيش ولا يمكنها أن تعيش حالة «استقرار» أو «اكتمال» وأن كل تفكير في هذا الاتجاه تفكير طوباوي.

٣ ـ كي نحقّق وجوداً إبداعياً، وإبداعاً للوجود، كحالة مناهضة للموت ـ بالجمع ـ علينا أن نحقّق وعياً خارج «ذاكرة اللغة» وذلك بالعبث في تفتيت بنياتها، وهو الأمر الذي يخلق لها ذاكرة باستطاعتها أن تحطِّم وتتحطَّم في كل لحظة مفصلية إبداعية.

إن التكسير طموح لممارسة واعية لأجل تأسيس ذاكرة للتكسير غير مكسورة قبل ذاكرة البناء.

٤ ـ لا يحقّق الجنس الأدبي حياته في المعرفة الفنية عن طريق وعي خارجي لهذا الجنس، بل على الوعي الجمالي الطامح إلى التأسيس ـ لا في البدء ـ أن يتجاوز الوعي الموهم إلى الوعي المركّب الذي يسائل «النص» كمجال مفتوح للتجريب.

٥ ـ لا يتحقّق فعل التجاوز ورجّ «الثابت» المقدّس، الديني، في صورته «الأدبية» إلا إذا تخلّصت العلاقة: (المبدع ـ الإبداع (النص) من الرؤية البصرية في اتجاه رؤية رؤياوية، واستطاع المبدع أن يتخلّص من عقال ذاكرة اللغة التي تعيش في كل شيء، وأن يعيد للجنون عقله، وللعاقل في اللغة جنونه، فالمحجور من الذاكرة (بمعناها الفني) هو جنونها الذي هو وجه أساسي فيها، ولا يكون العاقل فيها عاقلاً إلا باستعادة جنونه.

٦ ـ إن تحرير الجنس الأدبي من الموت، لا تتحكّم فيه عملية

التحرّر الداخلية التي ينبني عليها النص (اللغة ـ الخطاب التشكيلي ـ البناء ـ الصورة ـ الرد ـ الحوار... إلخ) بل ـ يتم هذا التحرير أيضاً ـ بالبحث المستمر عن تحرير ما هو خارج النص من الموت والتمويت، لأن حياة «الأدبيات» كحياة جميع الكائنات.

هذا لا يعني أن التحرّر من الموت عبر الداخلي وداخل الداخلي، لا يتم بصورة مستقلّة، بل إن استقلاليته من حيث أنه «كائن» آخر، نص، له مواصفاته حتى في اللاتوصيف، من هنا فإن استقلاليته تكمن في الارتباط المتعدِّد والمعقَّد بالخارجي المتعدِّد أيضاً.

٧ ـ لا يمكن الحديث عن تحرّر الجنس الأدبي من الموت والحلولية في الحياة، دون الحديث عن تحرّر الذات المبدعة (الأنتلجانسيا الفنية) من أوهامها واغترابها.

٨ ـ بما أنه لا يمكن الحديث عن مؤسسة أدبية خارجة عن آلية الدولة الايديولوجية (ألتوسير)، فيستحيل إبعاد الفن عن طبيعة هذه العلاقة، وإبعاد الجنس الأدبي عنها (ظاهرة الشعر العربي الحر، وعلاقاته بالمؤسسات الايديولوجية للدولة الدينية والسياسية والتربوية) من هذا المنظور فكل جنس أدبي محكوم بعلاقة معقَّدة وفنية ما بين المؤسسة والنص في داخليته.

٩ ـ كل جنس يتحدَّد بموضعه الخارجي من خلال علاقته بالوضع القائم في العلوم الأخرى، إذ يستحيل ـ في رأينا ـ من الناحية الفلسفية إبعاد هذه العلاقة. فالحاجة تزداد أكثر فأكثر إلى التكامل بين العلوم، وهذا يقضي على الرؤية الضيِّقة للتخصّص بمفهومه «التقنوي»، فالعلوم ـ ومنها علم الأدب وهماً كان أو حقيقة وهمية ـ في تجلياتها المتعدِّدة بقدر ما تمحو الفواصل بينها، تصبح أدباً، وتصبح الأجزاء ضمن الكل الواحد سهلة التفكيك.

لذلك لم يعد في عصرنا هذا، وجود عضوي، لأديب ذي ثقافة عمومية، وأن فكرة الثقافة العامة ذهبت، لتحلّ محلها المعرفة الشمولية بمفهومها العلمي، وأن دراسة مركَّبة لمكينزمات التواصل والتقاطع، التآلف والتنافر، الثنائية والتعددية في النص، تعكس تلك الروافد التي تصبّ في «الأدبية» وتشكِّل جزءاً من ماهيتها.

إن الأجناس الأدبية كممارسة إبداعية، أو كتفكير في البنى من الناحية النظرية والفلسفية لا يمكنها أن توجد خارج العلوم الأخرى، معزولة في ذاتها الفيلولوجية الخالصة.

١٠ ـ في ظل سيطرة الاعلاماتية كعامل فاعل في تركيبة العقل المبدع، بشكل عفوي أو قصدي، لا يمكننا إبعاد تأثّر أدبية الجنس الأدبي في بنياتها الداخلية بهذا المحيط المتمركز في العقل، فالزمن في عصر التكنولوجيا المعقَّدة لا يأخذ البعد ذاته الذي كان للزمن في العصور المنصرمة، وكذا مفهوم المساحة والمسافة والأحجام والألوان... إلخ.

أن تجربة «الكتابة» الروائية تتمّ من خلال البرمجة الاعلاماتية. وإذا كان العلم والتكنولوجيا لا يزالان في جاهليتهما، أي لم يقتحما بعد طفولتهما المبكرة، فإن مستقبل العلاقة ما بين الأدبي والعلمي في كشوفاتهما المتبادلة سيقدِّم دون شك آفاقاً جديدة وحقولاً وأسئلة مفتوحة.

وإذا كنا نلمس اليوم «جفافاً» و«تركيباً» خارجياً للتجارب الأدبية المبرمجة فإنه لا ينبغي إبعاد السؤال من حيِّز الأسئلة الملحَّة في أركيولوجيا المعرفة.

هل القراءة في انتشارها وانحصارها كفيلة بالتأثير على الجنس الأدبي؟

حين يقول روائي مثل حنا مينا: الرواية ديوان العصر، ويقول القدامى: الشعر ديوان العرب، فإن كلاًّ من هذين الحكمين ناتج عن علاقة ذات وجهين: الأول: علاقة التفاعل المترابط ما بين بنية النص وبنية الواقع ـ دون فهم هذه العلاقة فهماً مرآوياً مبسَّطاً ـ أما العلاقة الثانية فهي علاقة الجنس الأدبي بالقارىء (الذي هو جزء من الواقع).

لا يمكن أن يختلف اثنان في أن «القراءة» بكل مفاهيمها «التوريط والاستهلاك والإبداع وإعادة الإنتاج» شرط أساسي لحياة الجنس الأدبي، فكل أدب لا يُقرأ معرَّض «للموت» لا أقصد الموت بمفهومه المطلق، إن «القراءة» هي الدنيا الثانية للجنس الأدبي.

ـ جورج لوكاتش وموريطانيا:

هل تصدق مقولات جورج لوكاتش التي حاولت وضع مقاربة لتحديد التموضع التاريخي لجنس الرواية، على واقع افريقي راهن، لا يحقِّق شرطية التموضع الذي قال به لوكاتش؟ إننا نسوق واقع موريطانيا كنظام اقتصادي ـ اجتماعي متميِّز بسيطرة الطابع الهيدروليكي الرعوي العشائري، حيث ينتفي وجود نظام ذي بنية رأسمالية، أو علاقات بورجوازية، ولكن مع ذلك فالرواية كجنس أدبي تنمو وتؤسس تراثها داخل واقع اجتماعي يبدو أنه يناقض ويتعارض معها، إذا ما أخذنا مقولة لوكاتش القائلة بتموضع الرواية تاريخياً في مجتمع رأسمالي.

يبدو لي أن شرعية الوجود الأدبي، وجود تتحكم فيه في المقام الأول أو الثاني لا يهم ـ قوى ـ خارجة عن تلك التصورات التي كانت ترى بأحادية ميكانيكية ارتباط أو انفصال الأدب عن الواقع.

إن التجربة الأدبية، والممارسة الأدبية داخل وفي الأجناس الأدبية، أضحت معقَّدة التأويل، فكلما ازدادت المجتمعات وصناعة الثقافة والإعلام تعقّداً، ازدادت الممارسة الأدبية ـ الكتابة ـ تعقّداً لا يمكن تفكيكه إلا بتسليط الضوء على مجالات وفضاءات ومتحكِّمات تبدو خارجية إلا أنها تصبّ في صميميّة الأدبية.

من الجنس إلى النص:

في عالم يخضع باستمرار لمتغيّرات جمالية تؤثّر وتتأثّر بالذوق العام والفردي، كثيراً ما يسعى الكاتب مأخوذاً «بالتجريب»، كطموح وتوريط، للذهاب في طرح علاقات نصّية مركَّبة، تستطيع

ـ العلاقة ـ أن تسمح بتموقع السمات الغالبة في كثير من الأجناس في نصٍّ واحد. لكن السؤال المطروح أمام الحداثة ـ خاصة الحداثة السردية الروائية ـ هو هل تمكّن النص المجرَّب الذي تتداخل فيه هذه الأجناس كأساليب وبنيات وإيقاعات، من إيجاد تعريفية حتى وإن كانت هذه التعريفية غير معرفة... أي بوعي واعٍ أنه في مهمة البحث عنها.

إن كثيراً من التجريب الذي ينحو هذا النحو، يعكس أزمة الخطاب، فالنصوص المكتوبة ـ الكتب المكتوبة ـ في أدبنا العربي سواء أكانت بالعربية أو بالفرنسية تؤكّد هذه الأزمة ـ أزمة التجريب الذي يفقد وعي ذاته كتجريب، إن نصوصاً كـ «تجاعيد الأسد» لعبد اللطيف اللعبي، و«طالسمانو» لعبد الوهاب مؤدب و«تجربة في العشق» للطاهر وطار و«الجواشن» لأمين صالح، أمثلة على ذلك. إن التزويج ما بين الأجناس تزويج خارجي يبدو لي أنه ناجم عن إخفاق في أسلبة الأجناس في جنس واحد مقترح. وإن درامية الصدمة ما بين الكتابة كألم، كاحتراق، تختلف من جنس إلى آخر خاصة حين يكون الكاتب فرداً جماعة.

إن حيرة «النص» مشكلة حضارية تحتاج إلى كثير من التقليب الجريء.

ما مستقبل الجنس الأدبي؟

ليس هناك جواب يمكنه أن يكون ردّاً على ذلك. إلا أن المعطيات والمشروطيات الإبداعية والمعرفية والاجتماعية والتكنولوجية كفيلة بأن تقدِّم صورة عن مستقبل نسبي لما سيكون عليه الأدبي. فالمؤثرات تؤكّد أن النص بكل تركيباته المعقّدة التي تحوّله إلى ملتقى العلمي والأدبي والفني والموسيقي والبصري الحجمي، هو الذي يستطيع أن يكون جواباً نسبياً على ذلك.

لكن قبل أن أنهي هذه المداخلة أتساءل:

هل الكتابة ستستمر في زمن قادم؟ هل المكتوب سيظل موجوداً؟ أعتقد أن الحضارة الانسانية يمكن تقسيمها إلى ثلاث محطّات تاريخية متداخلة:

أ ـ محطة الأذن: المرتبطة بالشفوي وحضارة السماع.

ب ـ محطة اليد: وهي المرحلة المرتبطة بالبحث والخروج من حصار الطبيعة ومقاومتها، وهي مرحلة نمت فيها وتطوّرت الكتابة ولا تزال مستمرة.

جـ ـ مرحلة العين: وهي المتصلة بسلطة التكنولوجيا المعقّدة وفيها تلعب العين وبعض مخلّفات «عصر اليد» دوراً... وهنا سينتهي المكتوب... ربما!

إذن هل تموت الأجناس الأدبية لتفسح المجال للنص أو للأسفار المتحرِّرة من الأعراف التقليدية... أم أن الأدبي المكتوب معرّض هو نفسه للزوال أمام سلطة حضارة العين... ربما!

الجزائر

صدر حديثاً

مخلوقات الأشواق الطائرة

و

محطة السكة الحديد

روايتان

لادوار خراط

في عتمة أول المساء رأيت هذه المخلوقات الشمعيّة، مائلة على جنبها، ثابتة الجوارح، تطير تحت السحاب الذي بدأ يشفّ الآن من نور القمر المقطوع، تحملها ريحٌ خفيفة. ومن بينها فينوس. حيّة صغيرة القدّ، ينبض جسدها، شمعية التقاطيع، وجهها أعرفه وأحبّه. كم لثمته!

دار الآداب